تطبيقُ النَّظَرِيَّةُ السّيَاقِيّةُ في القُرْآنِ الكَرِيمِ

Application of contextual theory in the Holy Qur'an

د. كريم كحول*

جامعة الجزائر2، الجزائر، karim.kahoul@univ-alger2.dz

د.علي عثماني

جامعة علي لونيسي، البليدة-الجزائر، *Ibrahimothmani4589@gmail.com*

تاريخ الاستلام 2021/10/18 تاريخ القبول 2021/12/23

الملخص

ثبت من خلال الدراسات الحديثة أنّ السياق بأنواعه المعروفة من العناصر المهمة التي لا يمكن إقصاؤها عند دراسة المعنى ، لما له من أهمية كبرى في تحديد المعنى وتوجيهه، لأنّ معظم الكلمات لها في المعجم أكثر من دلالة ، والذي يحدد هذه المعاني ويميزها هو السياق .

وللوقوف على أهمية السياق أكثر، حاولنا تطبيق النظرية السياقية على النصّ القرآني وما ذلك إلا لنثبت أنّ المفسرين القدماء قد عرفوا هذه النظرية واعتمدوا على السياق في تحديد مدلولات الألفاظ وبخاصّة في المشترك اللفظي الذي يعرف عندهم بالوجوه والنظائر، وكذلك تفسيرهم الآيات حسب سبب نزولها وهو ما يعرف اليوم بسياق الموقف، وقبل ذلك مهدنا بجانب نظري موجز، تعرضنا فيه لمفهوم السياق في اللغة والاصطلاح ، ثم لأنواع السياق وفصلنا القول في نوعين يعدان من أهم أنواعه، وهما السياق اللغوي، وسياق الموقف أو المقام.

الكلمات المفتاحية: السياق، النظرية السياقية، المشترك اللفظي، الوجوه والنظائر .

Abstract:

Proven through recent studiesthatthe known typescontext whoever important elementswhich can not be excluded when studying the meaning, because of his great importance in determining and guiding of the meaning, because the most words are in the lexicon a more than of connotation, which defines these meanings and differentiate them is the context.

And to stand onthe importance of the context more,we tried to apply the contextual theory on the Quranic textand this is only to prove that the ancient interpreters have known this theoryand they relied on the context in determining the meanings of words and especially in the common verbal who know them with faces and isotopes,as well as their interpretation of the versesby reason of their descent,which is known todaythe context of the situation,and before thatwe cradled a

brief theoretical side,we presented the concept of context in language and terminology,then for context typesand we separated the saying in two types are one of the most important types,namely the linguistic context,and the context of the situation or the position.

***Keys Words:** Context , contextual theory , common verbal , faces and isot*

* المؤلف المرسل

مقدّمة:

تعد النظرية السياقية أو نظرية السياق من أحدث النظريات في دراسة المعنى، وقد أخذت هذه النظرية مكانة متميزة في البحث الدلالي عند علماء اللغويات في العصر الحديث، ولعل من أهم مزايا هذه النظرية موضوعيتها ، وعدم خروجها عن بنية اللغة .

وقد ثبت من خلال الدراسات الحديثة أن السياق بأنواعه الأربعة: اللغوي والمقامي والثقافي والعاطفي من العناصر المهمة التي لا يمكن إقصاؤها عند دراسة المعنى، لما له من أهمية كبرى في تحديد المعنى وتوجيهه، لأن معظم الكلمات لها في المعجم أكثر من دلالة ، والذي يحدد هذه المعاني ويميزها هو السياق .

وللوقوف على أهمية السياق أكثر، حاولنا تطبيق النظرية السياقية على بعض الآيات القرآنية وما ذلك إلا لنثبت أن المفسرين قد عرفوا هذه النظرية واعتمدوا على السياق في تحديد مدلولات الألفاظ وبخاصة في المشترك اللفظي الذي يعرف عندهم بالوجوه والنظائر، وكذلك تفسيرهم الآيات حسب سبب نزولها وهو ما يعرف اليوم بسياق الموقف، وقبل ذلك مهدنا بجانب نظري موجز، عرضنا فيه لمفهوم السياق في اللغة والاصطلاح، ثم لأنواع السياق وفصلنا القول في نوعين يعدان من أهم أنواعه، وهما السياق اللغوي ، وسياق الموقف أو المقام.

إنّ إِشْكَالِيِّةَ هَذَا البحث تتَمَرْكَزُ حَوْلَ السُّؤَالِ الرَّئِيسِ الآتِي: ما دور السياق في تحديد مدلولات الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ؟ وهل اعتمد المفسرون على النظرية السياقية في تفسير بعض الآيات القرآنية التي يبدو ظاهرها مخالفا للمعنى المراد ؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية اتبعنا المنهج الوصفي؛ حيث انطلقنا في تطبيق السياق اللغوي من ظاهرة تمتاز بها اللغة العربية، وهي ظاهرة المشترك اللفظي أو الوجوه والنظائر لنقف على دور السياق في تحديد مدلول الكلمات المشتركة .

أما تطبيق سياق المقام فقد اعتمدنا بالأساس على أسباب النزول، فسبب النزول يعتبر مساويا لسياق المقام بل يعد في كثير من الأحيان أحسن محدد لدلالة بعض الكلمات أو الجمل، والتي إن فسرت على ظاهرها دون الرجوع إليه أدت إلى خلل في المعنى المراد .

1- مفهوم السياق

1-1- السياق لغة:

السياق مصدر الفعل الثلاثي (ساق)، تقول : سَاقَ يَسُوقُ سَوْقًا وَسِيَاقًا ، فَالأَلِفُ مُنْقَلِبَةٌ عَنْ وَاوٍ. وإذا نظرنا في المعاجم العربية القديمة وجدنا مادة هذا الفعل في (س و ق) .

قال ابن فارس : "السِّينُ وَالْوَاوُ وَالْقَافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ حَدْوُ الشَّيْءِ. يُقَالُ سَاقَهُ يَسُوقُهُ سَوْقًا. وَالسَّيِّقَةُ: مَا اسْتِيقَ مِنَ الدَّوَابِّ. وَيُقَالُ سُقْتُ إِلَى امْرَأَتِي صَدَاقَهَا، وَأَسَقْتُهُ. وَالسُّوقُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ هَذَا، لِمَا يُسَاقُ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْجَمْعُ أَسْوَاقٌ. وَالسَّاقُ لِلْإِنْسَانِ وَغَيْرُهُ، وَالْجَمْعُ سُوقٌ، إِنَّمَا سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْمَاشِيَ يَنْسَاقُ عَلَيْهَا ".[1]

وقال الراغب :" سَوْقُ الإبل: جلبها وطردها، يقال: سُقْتُهُ فَانْسَاقَ ... والسَّوِيقُ سمّي لِانْسِياقِهِ في الحلق من غير مضغ"[2].

وللسياق في باب المجاز استعمالات كثيرة كما قال الزمخشري : " ومن المجاز: ساق اللّه إليه خيراً. وساق إليها المهر. وساقت الريح السحاب. وأردت هذه الدار بثمن، فساقها اللّه إليك بلا ثمن. والمحتضر يسوق سياقاً. وفلان في ساقة العسكر: في آخره وهو جمع سائق كقادة في قائد. وهو يساوقه ويقاوده، وتساوقت الإبل: تتابعت. وهو يسوق الحديث أحسن سياق، و" إليك يساق الحديث " وهذا الكلام مساقة إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده" [3].

يتبين من قول الزمخشري أن للسياق دلالة أصلية، وهي: تسيير وتوجيه الحيوان من الإبل والغنم ونحوها من الخلف، ثم تطورت هذه الدلالة إلى معاني أخر ، كسوق الخير ، وسوقِ الريحِ السحابَ ، وسوق المهرِ وسوق الكلام والحديث .

والسياق مصدر لا يراد به عين الحدث بل يراد منه اسم المفعول، فهو سياق بمعنى مسوق، واستعمال المصدر بمعنى اسم المفعول كثير في اللغة، كالخلق بمعنى المخلوق، واللفظ بمعنى الملفوظ، والقول بمعنى المقول[4].

1-2- السياق اصطلاحا:

للسياق تعريفات عديدة نذكر منها :

1 ـ " علاقة لغويّة، أو خارج نطاق اللغة يظهر فيها الحدث الكلاميّ"[5].

2 ـ "المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغوية، سواء أكانت كلمة أم جملة في إطار من العناصر اللغوية أو غير اللغوية"[6].

3 ـ " تلك الأجزاء من الخطاب التي تحف بالكلمة في المقطع وتساعد في الكشف عن معناها " [7].

إذا لاحظنا هذه التعريفات الثلاثة نلمح أن السمة المشتركة التي تجمعها هو كون السياق عبارة عن الوحدات اللغوية السابقة أواللاحقة، والظروف والملابسات التي تحيط بالكلمة بحيث لا ينكشف المعنى إلا من خلاله .

ولهذا أصحاب هذه النظرية في شرح وجهة نظرهم بالقول إن " معظم الوحدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات أخرى، وإن معاني هذه الوحدات لايمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها "[8] .

2-أنواع السياق

إن الباحث عن النظرية السياقية يجد تقسيمات عديدة للسياق ولعل أشهر تقسيم ما اقترحه K.Ammer إذ قسمه إلى أربع شعب تشمل : السياق اللغوي، والسياق العاطفي، وسياق الموقف، والسياق الثقافي[9]

هذه هي أنواع السياق، وسنتناول بالشرح نوعين هما: السياق اللغوي، وسياق الموقف لأهميتهما الكبرى ولأننا طبقنا من خلالهما النظرية السياقية على القرآن الكريم .

2-1- السياق اللغوي:

يعرف بأنه " سابق الكلام ولاحقه " [10]، أو "هو البيئة اللغوية التي تحيط بصوت أو فونيم أو مورفيم أو كلمة أو عبارة أو جملة " [11].

ويعتبر السياق اللغوي عنصرا مهمّا في تحديد دلالات الألفاظ وبخاصة في مجال المشترك اللفظي والترادف والتضاد "فالمعنى الذي يقدمه المعجم عادة هو معنى متعدد وعام ويتصف بالاحتمال على حين أن المعنى الذي يقدمه السياق ـ ولا سيما السياق اللغوي ـ هو معنى معين له حدود واضحة وسمات محدودة غير قابلة للتعدد أو الاشتراك أو التعميم " [12].

وإذا أردنا أن نضرب مثالا فلنأخذ كلمة " عين " في اللغة العربية ، فإن لها كثيرا من المعاني ولا تتحدد دلالتها إلا من خلال السياق اللغوي . وقد جمع ابن مالك معانيها بقوله :

العينُ جـــــاسُوسٌ وأهلُ الدارِ ... واســـــــمٌ لسيّدٍ وللدّينـــــارِ
وللمعـــــــاينةِ والخيـــــــارِ ... وواحدِ الأعيـــــانِ في الأنسابِ
والعـــــينُ أيضـــــا مُزنَةٌ قِبليَّهْ ... وعوجُ المـــــيزانِ والمـــــعزيَّهْ
للشّمسِ والقبـــلةِ والمرئيَّـــهْ ... في رُكَبِ النّـــاسِ إلى جَنَـــابِ
والعينُ ذاتُ الشّيءِ ثمَّ الحـــاضِرُ ... ومـــا به يبصِرُ شيئًا ناظرُ
ومَصْدرٌ منْ عانَ عمْرًا عـــامرُ ... أصَـــابَهُ بنَظرٍ غَـــــلابِ[13]

تقول مثلا : هذا عينٌ للعدو، فالعين هنا بمعنى الجاسوس، وتقول : هذه عين جارية ، فالعين هنا بمعنى عين الماء ، وجاء زيد عينه ، بمعنى ذاته إلى غير ذلك من الأمثلة .

2-2- سياق الموقف

ويعرف بأنه " مجموع العوامل والظروف الاجتماعية، وخاصة الثقافية التي تحيط وأحاطت بالمتكلم والسامع"[14].

هذه الظروف التي تؤثر في فهم النص تكون " في أمرين :

1 ـ ذكر مناسبة النص، كسبب الكلام، وهو في التفسير سبب النزول .

2 ـ ذكر عادات وتقاليد تضمنها النص، واعتبارها في توجيه الدلالات "[15] .

ويشمل سياق الموقف أيضا " شخصية المتكلم ، وشخصية المخاطب وما بينهما من علاقات، وما يحيط بالكلام ساعة التكلم "[16] .

ومثال سياق الموقف استعمال كلمة يرحم من مقام تشميت العاطس (يرحمك اللّه) (البدء بالفعل)، وفي مقام الترحم بعد الموت (اللّه يرحمه) (البدء بالاسم). فالأولى تعني طلب الرحمة في الدنيا ، والثانية تعني طلب الرحمة في الآخرة .[17]

3- تطبيق النظرية السياقية على القرآن الكريم

3-1-تطبيق السياق اللغوي:

ننطلق في تطبيق السياق اللغوي على القرآن الكريم من المشترك اللفظي، وهو " اللفظ الواحد الدالّ على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السّواء عند أهل تلك اللغة " [18] .

ويعتمد تحديد دلالة المشترك اللفظي ـ بلا شك ـ على السياق ، و " هو علاقة الكلمة التي وقع فيها المشترك اللّفظي مع ما قبلها وما بعدها من كلمات الجملة، وذلك لأن الكلمات ليست أجساما بلا أرواح، ولكنها حيّة متحرّكة تعطي إشعات معينة للكلمات التي وقع فيها الاشتراك، وهي المفتاح الذي يفتح المغلق منها أو المصباح الذي يهتدي بضوئه على تحديد معاني الكلمة المشتركة " [19].

هذا ولم يسم علماؤنا القدماء المشترك اللفظي في الحقل القرآني بهذا الاسم ، بل سموه الوجوه والنظائر؛ حيث جمعوا الألفاظ التي اختلفت دلالتها باختلاف سياقاتها وسموها وجوها، وأردفوا كل لفظ في آية معينة بنظيره ـ الذي يحمل المعنى نفسه ـ في آية أخرى وسموها النظائر .

والوجوه والنظائر كثيرة جدا، ولضيق المقام نكتفي بذكر مثال واحد وهو كلمة "الرحمة"، حيث اختلف المفسرون وأصحاب الوجوه والنظائر في عدد الوجوه التي وردت عليها في القرآن الكريم، فقال مقاتل: " الرحمة على أحد عشر وجها "[20] ، وقال يحيى بن سلام " تفسير الرحمة على أحد عشر وجها

"[21] و قال العسكري : " والرحمة في القرآن على ثمانية أوجه "[22] ، وقال ابن الجوزي : " وَذكر أهل التَّفْسِير أَن الرَّحْمَة فِي الْقُرْآن على سِتَّة عشر وَجها "[23] .

وفيما يأتي سنذكر بعض هذه الوجوه ، حيث نكتفي بذكر اللفظ مرة واحدة أي: دون ذكر نظائره في آيات أخر ، محاولين تبيين دور السياق في فهم الكلمة .

الرحمة في الأصل الرقة والرأفة ، قال ابن فارس : " الرَّاءُ وَالْحَاءُ وَالْمِيمُ أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الرِّقَّةِ وَالْعَطْفِ وَالرَّأْفَةِ. يُقَالُ مِنْ ذَلِكَ رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إِذَا رَقَّ لَهُ وَتَعَطَّفَ عَلَيْهِ. وَالرُّحْمُ وَالْمَرْحَمَةُ والرَّحْمَةُ بِمَعْنًى"[24].

- وجوه الرّحمة في القرآن الكريم :

الوجه الأول : الرحمة بمعنى : الجنّة [25]

ومن ذلك قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ) (البقرة: ٢١٨). يبين لنا سياق الآية هنا أن الرحمة بمعنى الجنة، ذلك أن الإنسان المؤمن لا يرجو من الهجرة والجهاد في سبيل اللّه ثمنا إلا الجنة، فهي الغاية المتوخاة من تحمل وعثاء السفر ومفارقة الأهل والجيران، ومصاولة الأعداء، ومكابدة ضرب السيوف وطعن الرماح . قال الزجاج في تفسير هذه الآية:" وجملة ما أَخْبَرَ اللّه به عن المؤمنين العاملين الصالحاتِ أنَّهم يجازَوْن بالجنة " [26].

الوجه الثاني : الرحمة بمعنى الإسلام[27]

ومنه قوله تعالى : (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (الفتح: ٢٥).

يبين لنا سياق هذه الآية أن المقصود من الرحمة هو دين الإسلام ، ذلك أن اللّه ـ عز وجل ـ بعد أن أبان فيما سلف أن اللّه كف أيدي المؤمنين عن الكافرين، وكف أيدي الكافرين عن المؤمنين- عيّن هنا مكان الكف وهو البيت الحرام الذي صدّوا المؤمنين عنه، ومنعوا الهدى معكوفا أن يبلغ محله، والسبب الذي لأجله كفوهم هو كفرهم باللّه، ثم أخبرهم بأنه لولا أن يقتلوا رجالا مؤمنين ونساء مؤمنات لا علم لهم بهم فيلزمهم العار والإثم- لأذن لهم فى دخول مكة، ولقد كان الكف ومنع التعذيب عن أهل مكة ليدخل اللّه فى دين الإسلام من يشاء منهم بعد الصلح وقبل دخولها، وليمنعنّ الأذى عن المؤمنين منهم، ولو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما بالقتل والسبي حين جعلوا فى قلوبهم أنفة الجاهلية التي تمنع من الإذعان للحق، ولكن أنزل اللّه الثبات والوقار على رسوله وعلى المؤمنين فامتنعوا أن يبطشوا بهم، وألزمهم الوفاء بالعهد وكانوا أحق بذلك من غيرهم إذ اختارهم اللّه لدينه وصحبة نبيه[28].

الوجه الثالث : الرحمة بمعنى النبوة[29]

ومنه قوله تعالى : (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا) (الزخرف: ٣٢). يبين سياق هذه الآية أن الرحمة بمعنى النبوة، وبيان ذلك أن الآية التي قبلها (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (الزخرف: ٣١) تتحدث عن النبوة، فهم أنكروا نزول الوحي على النبي ـ صلى اللّه عليه وسلم ـ " فقال اللّه عزّ وجلّ ردّا عليهم وإنكارا: أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ يعني النُّبوَّة، فيضعونها حيث شاؤوا، لأنهم اعترضوا على اللّه بما قالو"[30] .

الوجه الرابع : الرحمة بمعنى المطر[31]

قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (الأعراف: ٥٧). يبين لنا سياق الآية أن الرحمة هنا بمعنى المطر، لأنه ذكر قبلها الريح وكثيرا ما يصاحب الريح المطر . قال ابن الجوزي :" والرحمة هاهنا: المطر سماه رحمة لأنه كان بالرحمة" [32].وقال ابن عاشور : " وَالرَّحْمَةُ هَذِهِ أُرِيدَ بِهَا الْمَطَرُ، فَهُوَ مِنْ إِطْلَاقِ الْمَصْدَرِ عَلَى الْمَفْعُولِ، لِأَنَّ اللَّهَ يَرْحَمُ بِهِ. وَالْقَرِينَةُ عَلَى الْمُرَادِ بَقِيَّةُ الْكَلَامِ " [33].

الوجه الخامس : الرحمة بمعنى الرزق أو المال[34]

قال تعالى : (قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا) (الإسراء: ١٠٠) . يبين لنا سياق الآية أن الرحمة هنا بمعنى الرزق وما يشمله من الأموال أو الأنعام والممتلكات ، وبيان ذلك قوله لأمسكتم خشية الإنفاق والشيء الذي ينفق لا شك أنه رزق . قال الطبري : " يقول تعالى ذكره لنبيّه: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: لو أنتم أيها الناس تملكون خزائن أملاك ربي من الأموال، وعنى بالرحمة في هذا الموضع: المال (إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ) يقول: إذن لَبَخِلْتُمْ بِهِ فَلم تجودوا بها على غيركم، خشية من الإنفاق والإقتار " [35].

3-2- تطبيق سياق االموقف:

-الآية الأولى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (البقرة: ٦)

هذه الآية إذا فسرت على ظاهرها من غير أن ننظر في سياق المقام دلت على أن الذين كفروا لاينفع معهم إنذار، وأنهم لا يمكن أن يؤمنوا ، ولكن الواقع أن " من الكُفّار من قد نَفَعه اللّه بإنذار النبي صلى اللّه عليه وسلم إيّاه، لإيمانه باللّه وبالنبي صلى اللّه عليه وسلم وما جاء به من عند اللّه بعد نزول هذه السورة " [36].

هنا يسعفنا سياق المقام أو الحال ، وهو في القرآن سبب النزول ويبين لنا أن الآية ليست على إطلاقها بل نزلت في أشخاص معينين من الكفرة سبق عليهم الكتاب بأنهم لن يؤمنوا، كما قال الماتريدي : " هذا - واللَّه أعلم - في قوم خاص، عَلِمَ اللَّه أنهم لا يؤمنون، فأخبر عَزَّ وَجَلَّ رسولَه

بذلك، فكان كما قال "[37] ، وقال مكي بن أبي طالب : " هذه الآية نزلت في قوم سبق في علم اللّه فيهم أنهم لا يؤمنون، فأعلم اللّه نبيه صلى اللّه عليه وسلم أن الإنذار لا ينفعهم لما سبق لهم في علمه، وَثَمَّ كفار أُخَر نفعهم الإنذار فآمنوا لما سبق لهم في علم اللّه سبحانه من الإيمان به، فالآية عامة في ظاهر اللفظ يراد به الخصوص، فهي في من تقدم له في علم اللّه أنه لا يؤمن خاصة "[38] .

واختلفوا في هؤلاء الأشخاص المعينين فقال " الضَّحَّاكُ: نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ وَخَمْسَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ " [39] ، " وكان ابن عباس يرى أنَّ هذه الآية نزلتْ في اليهود الذين كانوا بنَواحي المدينةِ على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، توبيخًا لهم في جُحودهم نبوَّةَ محمد صلى اللّه عليه وسلم وتكذيبِهم به، مع علمهم به ومعرفتِهم بأنّه رسولُ اللّه إليهم وإلى الناس كافّة " [40].

وبعد تأويل الآية بالاعتماد على سياق الموقف أضاف الطبري ـ رحمه اللّه ـ إلى هذا السياق السياق اللغوي في اختياره التأويل الذي ذهب إليه ابن عباس ـ رضي اللّه عنهما ـ حيث قال : " وأمَّا عِلَّتُنا في اختيارنا ما اخترنا من التأويل في ذلك، فهي أنّ قول اللّه جل ثناؤه (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) البقرة: ٦ ، عَقِيبَ خبر اللّه جل ثناؤه عن مؤمني أهل الكتاب، وعَقِيبَ نعتهم وصِفتهم وثنائه عليهم بإيمانهم به وبكتبه ورسله. فأوْلى الأمور بحكمة اللّه، أن يُتلِيَ ذلك الخبرَ عن كُفّارهم ونُعُوتهم، وذمِّ أسبابهم وأحوالهم ، وإظهارَ شَتْمهم والبراءةَ منهم " [41].

-الآية الثانية : (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ) البقرة: ١١٥

هذه الآية إذا فسرت على ظاهرها دون مراعاة سياق الموقف ، فإنها تدل على أن الإنسان يجوز له أن يصلي إلى أي جهة شاء ،ولا يجب أن يولي وجهه شطر المسجد الحرام مطلقا ، سواء أكان في حضر أم في سفر.

هنا ننظر في سبب نزول الآية لنجد التأويل الصحيح للآية فقد روي " في نزولها أربعة أقوال:

أحدها: أن الصحابة كانوا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في غزوة في ليلة مظلمة، فلم يعرفوا القبلة، فجعل كل واحد منهم مسجداً بين يديه وصلى، فلما أصبحوا إذا هم على غير القبلة، فذكروا ذلك لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية. رواه عامر بن ربيعه.

والثاني: أنها نزلت في التطوع بالنافلة. قاله ابن عمر.

والثالث: أنه لما نزل قوله تعالى: ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، قالوا: إلى أين؟ فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد.

والرابع: أنه لما مات النجاشي، وأمرهم النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم بالصلاة عليه قالوا: إنه كان لا يصلي إلى القبلة فنزلت هذه الآية، قاله قتادة " [42].

هذا ولم يقتنع أحد الباحثين بسياق الموقف لتفسير هذه الآية ، واعتمد في تفسيرها على السياق اللغوي فقال : "وعندي - واللّه أعلم - أنه لا بد لمن أراد التحقيق والتدقيق في معرفة تفسير الآية أو الوقوف على سبب نزولها أن يتأمل السياق القرآني الذي وردت فيه الآية ؛ لأن الآيات في الأعم الأغلب، لا بد أن يكون لها ارتباط بما قبلها، وعلاقة بما بعدها، أما انتزاع الآية وحدها كأنها ثمرة فلا شك أنه يوقع المفسر في الخطأ والزلل.

وهذا السياق الذي معنا ليس بعيدًا من هذا، فالآية التي قبلها هي قوله - عَزَّ وَجَلَّ -: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا) البقرة: ١١٤ تتحدث عن المشركين الذين أخرجوا رسول اللّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وصدوه عن البيت حين قصده عام الحديبية كما هو الراجح من قولي المفسرين.

ثم جاءت هذه الآية: (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ) البقرة: ١١٥ تسلية لرسول اللّه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وأصحابه الذين أُخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومصلاهم "[43] .

خاتمة:

ختاما يمكن الوقوف على النتائج الآتية :

-اعتمد علماء التفسير والوجوه والنظائر وأصحاب كتب أسباب النزول على هذه النظرية اعتمادا كبيرا في تفسير كثير من الآيات القرآنية وهذا يدل دلالة قاطعة إلى أن علماءنا القدماء هم السباقون إلى هذه النظرية.

-علم الوجوه والنظائر من علوم القرآن التي لا يمكن عزلها عن السياق بجميع أنواعه وهذا ما يدل على تمكن علماء القرآن من آليات التحليل اللغوي وإن لم يذكروا هذه النظرية صراحة .

-علم الوجوه والنظائر خير مثال عن تطبيق علمائنا للنظرية السياقية في القرآن الكريم وبخاصة الاعتماد على السياق اللغوي السابق أو اللاحق في تبيان وجوه ونظائر الألفاظ، كما أن أسباب النزول خير مثال أيضا على تطبيق هذه النظرية وذلك ما يتجلى واضحا في تطبيق سياق الحال أو المقام في تفسير بعض الآيات التي لولا سبب النزول ما فهمت على الوجه المراد منها.

الهوامش:

[1] ابن فارس، أبو الحسين، (1399هـ -1979م)، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دمشق- سوريا، دار الفكر.ج3.ص 117 .

[2] الراغب الأصفهانى، أبو القاسم ،الحسين بن محمد ، (1412هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دمشق، بيروت، دار القلم، الدار الشامية ، ص436 .

[3] الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو ، جار الله، (1419هـ -1998م)، أساس البلاغة، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ج1 . ص484 .

[4] ينظر: الأشموني ، علي بن محمد، (1419هـ -1998م)، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، تحقيق: إيميل بديع يعقوب، بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية، ج1، ص23

[5]عوض حيدر، فريد، (1426هــ -2005م)، علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية، القاهرة، مكتبة الآداب، ص157 .

[6]الطلحي، ردة الله بن ردة بن ضيف الله، (1418هـ)، دلالة السياق، ، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية ، السعودية ، مج1 ، ص40.

[7]الشهري، عبد الهادي بن ناصر، (2004م)، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية ، بيروت- لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة،.ص40 .

[8]مختار عمر، أحمد، (1998م)، علم الدلالة، الأردن، عالم الكتب الحديث .ص 68ـ 69 .

[9] ينظر : مختار عمر، نفسه ، ص69 .

[10]القاسم، عبد الكريم بن عبد الله ، (2012م)، دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير، الرياض، دار التدمرية ، مج1 ، ص88.

[11]عوض حيدر، فريد ، نفسه ، ص158 .

[12]قدور أحمد محمد، (1999م) ، مبادئ اللسانيات، بيروت، دار الفكر المعاصر .ص 295 .

[13] ابن مالك ، محمد جمال الدين، (1329هــ)، الإعلام بمثلث الكلام ، تحقيق: أحمد بن الأمين الشنقيطي، مصر، مطبعة الجمالية، ص137 .

[14]صالح، أيمن، (2010م)، القرائن والنص، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي .ص278 .

(15)القاسم، عبد الحكيم بن عبد الله ، نفسه ، ص90 .

[16]حامد الصالح ، حسين، (2005م)، التأويل اللغوي في القرآن الكريم، بيروت، دار ابن حزم للطباعة والنشر.ص 49 .

[17] ينظر : مختار عمر ، نفسه ، ص71 .

[18] السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، (1998م)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، تحقيق: فؤاد علي منصور، بيروت، دار الكتب العلمية ، ج1، ص292 .

[19]سالم مكرم، عبد العال، (1417هـ)، المشترك اللفظي في الحقل القرآني، بيروت، موسسة الرسالة .ص 23 .

[20] مقاتل بن سليمان البلخي، (2006م)، الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ، تحقيق: حاتم صالح الضامن ، دبي، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث العربي. ص 39 .

[21]ابن سلام ، يحيى، (1979م)، التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه ، تحقيق : هند شلبي، تونس، الشركة التونسية للتوزيع ، ص134.

[22] العسكري، أبو هلال، (2007م)، الوجوه والنظائر ، تحقيق: محمد عثمان ، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية .ص 266 .

[23] ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، (1984م)، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، بيروت، مؤسسة الرسالة. ص 331 .

[24] ابن فارس ، المصدر نفسه ، ج2 ، ص498 .

[25] ينظر: مقاتل بن سليمان ، نفسه ، ص40 . وابن سلام ، نفسه ، ص 134 . والعسكري، نفسه ، ص227 . وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر ، ص331 .

[26] الزجاج ، إ براهيم بن السري، (1998م)، معاني القرآن وإعرابه ، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، بيروت، عالم الكتب .ج1، ص290 .

[27] ينظر: مقاتل بن سليمان، نفسه، ص39 . وابن سلام، نفسه، ص 134 . وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص332 .

[28] ينظر: المراغي أحمد بن مصطفى ، (1946م)، تفسير المراغي، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده ج26 ، ص 109 .

[29] ينظر : مقاتل، نفسه، ص40 . وابن سلام، نفسه، ص135، والعسكري، نفسه، 227 . وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص332 .

[30] ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي ، (1422هـ)، زاد المسير في علم التفسير ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار الكتاب العربي، ج4 ، ص76 .

[31] ينظر: مقاتل، نفسه ، ص40 . وابن سلام، نفسه، ص135، والعسكري، نفسه، 227 . وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص332 .

[32] ابن الجوزي ، زاد المسير ، ج 2 ، ص131 .

[33] بن عاشور، محمد الطاهر، (1984م)، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، تونس، الدار التونسية للنشر، ج8 ب ، ص 180 .

[34] ينظر: مقاتل، نفسه، ص41 . وابن سلام، نفسه، ص136، والعسكري، نفسه، 227 . وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص333 .

[35] الطبري، محمد بن جرير، (2000م)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر ، بيروت، مؤسسة الرسالة،، ج17 ، ص563 .

[36] الطبري ، نفسه، ج1 . ص253 .

[37] الماتريدي، محمد بن محمد، (2005م)، تأويلات أهل السنة ، تحقيق : مجدي باسلوم، بيروت، دار الكتب العلمية. ج1 ، ص 375 .

[38]القيسي، مكي بن أبي طالب، (2008م)، الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه ، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف

الشاهد البوشيخي ، مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة. ج1 ، ص 139 .

(39) النيسابوري، أبو الحسن علي بن أحمد، (1992م)، أسباب نزول القرآن ، تحقيق : عصام بن عبد المحسن الحميدان، المملكة العربية السعودية ، دار الإصلاح. ص21 .

(40) الطبري ، نفسه ، ص251 .

(41) الطبري ، نفسه ، ص253 .

(42) ابن الجوزي ، نفسه، ج1 ، ص103 .

(43)المزيني ، خالد بن سليمان ، (2006م)، المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية ، المملكة العربية السعودية، دار ابن الجوزي .ج1 ، ص212 .